فيا حماقى البهتان، إن كان هذا القرآن إفكاً افتراه محمد بمن أعانه من قوم آخرين، ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[١] بل ﴿. . . بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾[٢] لكي تتغلبوا عليه إبطالاً لحجته، وإغراقاً في لجته ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[٣] فإن ملامح ربوبية الكتاب فيه لائحة، وحياً من الله لا سواه.

ثم وقولة أخرى من الناكرين يكدرون بها الجو الجاهلي ضد القرآن:

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾:

الأساطير هي الأوهام والخرافات المختلقة المتسطرة، التي تتنقل في نوادي التفكه واللّهو، فمن المشركين من يعتبرون الفرقان من أساطير الأوّلين، من كتابيين وسواهم، اكتتبها محمد بمن أعانه، فأصبحت كتاباً تملى عليه بكرة وأصيلاً لكيلا ينساه.

وترى كيف يكتب أساطير وغير أساطير من لم يكن يقرأ أو يكتب: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٤]، وهنا الجواب كلمة واحدة:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾:

برهان قاطع لا مرد له على وحي القرآن، دليلاً فيه نفسه، فاستدلالاً به نفسه، فإنه الحجة الوحيدة غير الوهيدة على وحيه الصارم: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ حيث الفرقان يتحدث عن سرِّ السماوات والأرض تكويناً وتشريعاً، في تجاوب مكين أمين متين بين كتابي التدوين

(١) سورة هود، الآية: ١٣.
(٢) سورة يونس، الآية: ٣٨.
(٣) سورة السجدة، الآية: ٣.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

والتكوين، إذاً فالكاتب واحد هو الله الواحد القهار ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[١].

فكما أن رسول الوحي على بينة في أقواله وأفعاله وتصرفاته أنه رسول الوحي: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾[٢] فبأحرى كتاب الوحي المتحدى به على الجن والإنس، هو بيّنة بنفسه على أنه وحي، دونما حاجة إلى بينة أخرى.

فأين الكتاب الذي يحوي على سر السماوات والأرض وأين أساطير الأوّلين؟ بل وأين هو وكل سرّ يعلمه العلماء في مشارق الأرض ومغاربها طول الزمان وعرض المكان، فإن كان كتاب سرّ السماوات والأرض من أساطير الأولين، فما هو - إذاً - سائر الكتابات التي تعجز عن ظاهر العلن فضلاً عن باطن السر.

قضية الفرقان هي من القضايا التي قياساتها معها، فكل سرّ في الكائنات يظهر على تقدم العقل والعلم في عجلتهما العاجلة والآجلة، نراه مكشوفاً في القرآن باهراً لا ريب فيه، أفلا يدل ذلك على أنه ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وترى ما هي الصلة بين هذا التعقيب وذلك التقديم؟ هي أن رحمته الواسعة اقتضت إنزالاً لكتاب السر، إماماً لراحلة العالمين في التكشف عن أي سر في السماوات والأرضين، كما اقتضت الترحم على الناكرين لوحي القرآن، إمهالاً لهم رويداً، وهم يرتكبون أكبر الخطايا والظلامات الزور بحق القرآن ورسول القرآن، بتلك الدعوى

(١) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة يس، الآية: ١٦.

المتهافتة، ومن قبل كانوا يصرون على الإشراك بالله، ولكن باب التوبة - مع كل ذلك - مفتوحة بمصراعيها، والرجوع عن الخطيئة مهما كانت كبيرة، فالذي يعلم السر في السماوات والأرض، فيعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ منذ خلق الخلق وقبله ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أترى ﴿ٱلسِّرَّ﴾ الكائن في القرآن يعم الأخفى؟ قد يكون!: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾[1] فـ ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ هنا يعم السر وأخفى كما هناك أسرّ من السر العادي.

هذه من دعاياتهم الظالمة الزور الغرور على القرآن، ومن ثم على رسول القرآن:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾:

ويكأن رسول الله إلى البشر مستحيل كونه من البشر فيأكل الطعام ويمشي في الأسواق كسائر البشر، وقضية الحجة القاصمة أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم، قطعاً لأية عاذرة في اختلاف الجنس: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى...﴾[2].

وحتى لو كان رسول البشر ملكاً أم نذيراً مع الرسول البشر لما كان يظهر لهم إلّا بصورة البشر: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[3].

إن هؤلاء المقلوبة قلوبهم، المتحللين عن عقولهم، يعاكسون أمر حجة الله، فيستبدلون الحجة من رسول البشر، بغير حجة أم هي أدنى كرسول

(١) سورة طه، الآية: ٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩.

الملك، وإنه اعتراض كعاذرة لهم، مكرور على طول خط الرسالات، كيف يمكن أن يكون فلان ابن فلان الذي عشناه منذ الطفولة عائشاً عيشنا، آكلاً أكلتنا وماشياً في الأسواق مشيتنا، كيف يمكن أن يكون هو رسولاً من عند الله إلينا؟!

وهم في ذلك الاستغراب العجاب ينزِّلون من شأن الإنسانية إلى درجة الحيوان، حيث ينظرون إليه من المنظر المادي، متغافلين الروح العالية المتعالية التي تطير به إلى أعلى آفاق الكمال، فلا عجب - إذاً - أن يختار الله رسولاً من جنسه، حجة له عليه، وهادياً إليه.

وإنه الحكمة البالغة الإلّهية، أن يبعث إلى البشر واحداً منهم يحس ما يحسون، ويتذوق مواجدهم التي يتذوقون، ويعاني تجاربهم التي يعانون، مدركاً لآمالهم وآلامهم، عارفاً نوازعهم وأشواقهم، عالماً ضروراتهم وأثقالهم وأشغالهم، فيسير بهم خطوة خطوة إلى ما صار هو عليه، ولكي تكون حياته هو البشر - بحركاته وأعماله - صفحة معروضة لهم ينقلونها سطراً سطراً، ويحققونها حرفياً، حيث تهفو إلى تقليدها نفوسهم.

فلو كان ملكاً ما فكروا في عمله، ولا في تقليده، حيث المفاصلة بينه وبينهم في جنس الطبيعة وطبيعة الجنس، هذه المفاصلة تعذرهم عن أن يكونوا مثله، ويمثلوا أمثاله، وهذه خلاف الرحمة الإلّهية، أنه على قصور الحجة يتطلب منهم سلوك المحجة التي يحملها رسول ليس من جنسهم!.

وعاذرة لهم ثانية لو صدق الرسول البشر، أنه لا بد له من ميّزة في مال، حتى يتميز عنا في حال:

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾:

لقد خلطوا وتخبطوا في الشروط الآهلة للرسالة، فخيّل إليهم أنها هي

شروط الفرعنة، حاصرين كافة الأهليات في الحيونات والماديات، ويكأن الله ناظر إلى رغباتهم في شروطات الرسالات، فهم الذين يقررونها دونه:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾(١) (٢).

ثم ولأنه بشر، ولم يلق إليه كنز، ولا جنة يأكل منها، وهو يدعى هذه الرسالة - إذاً - فهو مسحور:

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ ومن هؤلاء الظالمين بحق هذه الرسالة السامية من فتح باباً في صحيحه: إن النبي ﷺ سحر(٣).

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾:

إذ اتهموك بالإفك مرة، ومثلوك برواة الأساطير أخرى، وشبهوك بالمسحورين ثالثة أماهيه.

أمثال مضروبة عليه، ضاربة إلى ظاهر من الحياة الدنيا، تغافلاً عن الأخرى ﴿فَضَلُّوا﴾ في الأمثال كما ضلوا عن صاحب الأمثال ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ للقضاء عليه، ولا التخلص عن حجته القارعة البارعة.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾:

﴿إِن شَاءَ﴾ في موقف التشكك يحول هذه القصور والجنات إلى الحياة الدنيا، وليس ليشاء الله له ذلك حيث موقف الرسالة يختلف عن زخرفات

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٣١، ٣٢.
(٢) البحث المفصل حول ميزات الرسالة في الإسراء على ضوء هذه الآية فراجع.
(٣) لقد أشبعنا البحث حول نكران ذلك النكير في سورة الفلق فراجع.

الحياة الدنيا وزهراتها، ثم ﴿إِن شَآءَ﴾ في واقع الحق من مشيئته يعم جنات الأخرى وقصورها، وقد شاءها لعباده الصالحين، وهو من أصلح الصالحين.

فليست هذه المشيئة الثانية مفروضة عليه إلّا بما وعد، ولا الأولى مرفوضة لديه إلّا بما وعد ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

ذلك الجواب الحاسم عما هرفوه فيما خرفوه، ولكن المخاطَب هنا هو النبي ﷺ دونهم، ولا حتى في «قل» تلميحاً أن هؤلاء الحماقى لا يستحقون حتى خطاباً في جواب!.

ولماذا في جنات ﴿جَعَلَ﴾ ماضياً وفي «قصوراً» «يجعل» مستقبلاً، وهما معاً جزاء الشرط؟ علّه للتصريح بما تلمحناه أن المشيئة الإلٰهية فيها متحققة يوم الأخرى، وهي غير محتومة عليه لا في الأولى ولا في الأخرى، وإنما رحمة منه في الأخرى بما كتب على نفسه الرحمة، وتزهيد له في الدنيا كما زهد فيها، وأبدله الله عنها في الأخرى «وإذا منازله فوق منازل الأنبياء فقال رضيت»[2].

ليس نكرانهم لقرآن الرسول ورسول القرآن بحجة لديهم، أو ريبة:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.

(٢) الدر المنثور ٥: ٦٣ - أخرج الواحدي وابن عساكر من طريق جرير عن الضحاك عن ابن عباس قال: لما عير المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة قالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق حزن رسول الله ﷺ لذلك فنزل جبرائيل فقال: إن ربك يقرئك السلام ويقول وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ثم أتاه خازن الجنان ومعه سفط من نور يتلألأ فقال: هذه مفاتيح خزائن الدنيا فنظر النبي ﷺ إلى جبرائيل كالمستشير له فضرب جبرائيل إلى الأرض أن تواضع فقال: يا رضوان لا حاجة لي فيها فنودي أن ارفع بصرك فرفع فإذا السماوات فتحت أبوابها إلى العرش وبدت جنات عدن فرأى منازل الأنبياء وعرفهم وإذا منازله فوق منازل الأنبياء فقال رضيت، ويروون أن هذه الآية أنزلها رضوان تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من تلك الآية، وفيه أخرج جماعة عن=

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾:

ذلك التكذيب داؤهم العضال، وما دواؤهم إلّا سعير، جهنم يصلونها وبئس المصير.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾:

أترى أن لسعير النار عين ترى من مكان قريب فضلاً عن بعيد؟ أجل لها عين[1] كما تناسبها، وهذه هي رؤية المعرفة بين النار وأهليها، فإنها من حصائل أعمالهم، وقد برزت بحقائقها سعيراً، فمهما اختصت صفة الرؤية بمن يشعر وله عين ناظرة، فالنار - التي هي أعمالهم التي قدموها - ترى وقودها، رؤية السر علانيته.

فقبل الرؤية هذه، علّها ليس لها تغيّظ وزفير، وإنما إعداد لاستقبال أهليها، فـ ﴿إِذَا رَأَتْهُم . . .﴾ ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ فالغيظ هو أعلى منازل الغضب، والتغيظ أعلى من الغيظ، فهو ثالوث من الغضب، والزفير هو الاضطرام والاهتياج، فذلك التغيظ والزفير إعلان من بعيد لاجتياح لهم قريب، كأنها تتحامل عليهم لكي تجذبهم إليها لأقرب وقت ممكن.

فيا لهذا التشخيص الشخيص من علوٍّ في فن التحضير للحوادث المستقبلة كأنها حاضرة الآن، ولا سيما بخلع الحياة وتجسيمها على ما ليس من شأنه الحياة، من الأشياء والمعاني والحالات النفسية، يرتفع بالصور والمشاهد إلى قمة الإعجاز في التعبير، بما يبث فيها من عنصر الحياة.

= خيثمة قال: قيل للنبي ﷺ إن شئت أعطيناك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم يعط نبي قبلك ولا يعطاه أحد بعدك ولا ينقصك ذلك مما لك عند الله شيئاً وإن شئت جمعتها لك في الآخرة؟ قال: اجمعها لي في الآخرة فأنزل الله تبارك الذي. . .

(١) المصدر أخرج الطبراني وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعداً من بين عيني جهنم قالوا يا رسول الله ﷺ: وهل لجهنم من عين؟ قال: نعم أما سمعتم الله يقول: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، فهل تراهم إلا بعينين.

فهنا سعير متسعرة متغيظة متزفرة، تراهم وتتحدث معهم، متميزة من النقمة عليهم وهم إليها سائرون، مشهد رهيب رعيب يزلزل الأقدام وترهب القلوب! وطبعاً هم ليسوا ليقدموا إليها بطبيعة الحال، فإنما اجتذاباً منها فإلقاء فيها.

﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾:

﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ في السعير عذاباً فوق العذاب، حيث السجن عذاب، وضيقه عذاب فوق العذاب، ومن ثم ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ بأيديهم وأرجلهم في السلاسل والأغلال ﴿أُلْقُواْ مِنْهَا﴾ مقرّنين ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ﴾ ومع الشياطين ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: «وقيضنا لهم قرناً». تقرّناً فيه من قرن العذاب وقرانه ما لا يُحسب له حساب... «والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط»[(١)].

﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ والثبور هي الويل الهلاك الفساد، فـ ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ﴾ في مقرَّن العذاب ﴿ثُبُورًا﴾: واويلاه، واهلاكاه، واثبوراه[(٢)] وافساداه، انفلاتاً عن أي اصطبار: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾[(٣)] ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[(٤)].

دعوا ثبوراً متحسبين أن هناك سامعاً لدعائهم ولات حين مناص، وقد فات يوم خلاص، بل يسمعون في تهتك ساخر مرير سافر:

---

(١) الدر المنثور ٥: ٦٤ - أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن هذه الآية، قال:...

(٢) المصدر بسند صحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: إن أوّل من يكسى حلة من النار إبليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريته من بعده وهو ينادي يا ثبوراه ويقولون يا ثبورهم حتى يقف على النار فيقول يا ثبوراه...

(٣) سورة الطور، الآية: ١٦.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾:

حيث العذاب ليس واحداً، بل هو كثير، فليعيشوا ثبوراً كثيراً، وتصبراً مريراً.

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾:

﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ هي الجنة الخالدة الأبدية ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] دون خلود النار المختلف باختلاف أهل النار، فإن له نهاية أبداً وغير أبد قضية العدل، وتلك الجنة ليست لها نهاية قضية الفضل ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ بفضل الله كما وعد، ﴿وَمَصِيرًا﴾ تلو مسيرهم.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ كما يصح ويصلح، حيث الكل هناك يعرف قَدَره وقدره، فلا يشاء فوق قدره ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فيها وفيما يشاءون ﴿كَانَ﴾ الخلود هنا وهناك ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ حيث كتب على نفسه الرحمة ﴿مَّسْـُٔولًا﴾ أن لو لم يقع لأهله، كان آهلاً للسؤال: رب قد وعدتني وها أنا عبدك التقي كما أمرتني! أم ﴿مَّسْـُٔولًا﴾ بما سأله عباده الصالحون فأجابهم: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[2] كما وسأله لهم الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[3] وهو القائل ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ﴾ حيث وعد الاستجابة لصالح الدعاء، فقد دعوا فليستجب، وكما كتب على نفسه الرحمة.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾:

(١) سورة هود، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٤.
(٣) سورة غافر، الآية: ٨.

وهل ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعم كافة المعبودين من أصنام وطواغيت، أو الصالحين من ملائكة ونبيين؟ والطواغيت هم الدُّعاة إلى أنفسهم، فكيف يسمح لهم ذلك الكذب في اليوم الذي لا يسمح لأي كذب!: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[١] ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾[٢].

والأصنام الجامدة لا قيلة لها حتى تقول قولتها، فيبقى - حينئذ - الصالحون ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ أن ندعي من دونك ألوهة، أم نقبل أن نُعبد من دونك، فـ ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ﴾ نحن ﴿مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ نعبدهم، فكيف نتخذ أنفسنا أولياء نُعبد من دونك؟

إذاً فلماذا التعبير عن أصلح الصالحين العقلاء بـ «ما»؟ علّه إخراجاً لهم عن أية مكانة حتى العقل، فضلاً عن كونهم معبودين، إظهاراً لواقع حالهم في ذواتهم لولا رحمة من الله.

أم أن الله يستنطق الأصنام فتقول ما هي في كيانها وطبيعتها، فـ ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ...﴾[٣] وأما الطواغيت فلا سبيل إلى قولتها هذه الكذب في يوم الصدق.

﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾ وإنما هم ضل السبيل: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾[٤].

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ١٥.
(٢) سورة المرسلات: ٣٥.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٤٤.
(٤) سورة المائدة، الآيتان: ١١٦، ١١٧.